الفصل التاسع

جيش من فرد واحد

«أريد أن أقتل كل أفغاني يقع تحت يدي»

- «جاك» في كتاب «مطاردة ابن لادن»

«إن الشيء الوحيد الأحرى بجاك أن يهاجمه هو فاتورة البار الذي كان يرتاده»

- صاحب فندق مصطفى في كابول.

في العاشر من أيلول/ سبتمبر من عام 2001، كان جوناثان كيث إديما يعيش حياة جندي متقاعد ذي أسبقية جنائية يمكن وصفها بأنها أقل من هادئة في مدينة فييتفيل بولاية كارولينا الشمالية. وفي اليوم اللاحق، وبينما كان يشاهد مقتل آلاف الأمريكيين بأمر عربي معمم ملتح مختبئ في كهف في جبال جنوب آسية، وجد جوناثان إديما هدفه الجديد في الحياة. فهو الآن عازم على قتل ابن لادن وكل إرهابي مشتبه به يمكن أن يقع تحت يديه. وأخبر جوناثان أسرته ورفاقه على الفور بأنه سيجهز متاعه ويتوجه إلى أفغانستان حالما يجد وسيلة لذلك بأسرع وقت ممكن. وكان الخطاب الذي وجهه بوش للشعب الأمريكي عبر شاشات التلفاز بعد تلك الحادثة ببضعة أيام، الذي أعلن فيه أن ابن لادن مطلوب «حياً أو ميتاً» هو التوجيه الذي جاء ليعزز طموحاتٍ تقبع تحته مشاعر غضب مستعر. لقد فتح عالم ما بعد 11 أيلول/ سبتمبر باباً واسعاً من الفرص العجيبة أمام المغامرين، والمخادعين، ومنتهزي الفرص، وخلق بيئة مثالية لأشخاص من أمثال جوناثان إديما لإشباع أقصى الجوانب المهيمنة في شخصيتهم: مشاعر الوطنية العمياء والحاجة إلى أعمال الإثارة والإعجاب، كما أن المكافأة التي بلغت عشرات الملايين لمن يأتي برأس ابن لادن كانت محفزاً قوياً لذلك الطموح. وبدأ كيث بالاستعداد لأول رحلة له

إلى أفغانستان، وهي الرحلة التي كانت بداية ملحمة سوداء انتهت بالقبض عليه في كابول بتهمة إدارة سجن غير قانوني وتعذيب المحتجزين فيه.

بدأ تحول إديما من عسكري سابق متعثر الحظ وصاحب أسبقية جنائية إلى «وطني من الطراز الأول» - كما يطلق هو على نفسه الآن- في 12 أيلول/ سبتمبر من عام 2001، حين نجح في الترتيب لظهوره في مقابلة تلفازية على محطة كي تي تي في التابعة لشبكة فوكس نيوز، مدعياً بأنه خبير في مجال مكافحة الإرهاب. وبهذه الصفة، زعم أمام مشاهديه أن هناك احتمالاً أن تكون ثلاث طائرات كندية قد اختطفت في اليوم السابق. وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تبدو ضرباً من الهراء، إلا أن إديما قدمها بأسلوب المتبجح المتيقن من معلوماته، وهو الأسلوب الذي مكنه فيما بعد من أداء عدد من الأدوار التي تقمصها بنجاح في السنوات الثلاث اللاحقة. ومنذ اللحظة التي ظهر فيها على شاشة التلفاز بصفته خبيراً في الإرهاب في 12 أيلول/ سبتمبر وحتى اللحظة التي قبض عليه فيها في شهر تموز/ يوليو من عام 2004، عُرف إديما بعدة أشياء منها: منتج أفلام وثائقية، ومتعاقد لتقديم الخدمات الإنسانية، ومتعاقد أمني مع وكالة الاستخبارات المركزية، ومتعاقد مع وزارة الدفاع، وفرد من أفراد القوات الخاصة، ومستشار لتحالف الشمال الأفغاني، ودليل سياحي، وموظف في البنتاغون، ومستشار إعلامي، ومدير سجون مستقل، ومحقق وممارس للتعذيب، وساع للحصول على جائزة القبض على ابن لادن. بعض هذه الأدوار كان حقيقياً، وبعضها كان من نسج الخيال، غير أن تلك الأدوار لم تخضع لأي تساؤل أو تحقيق حكومي إلا بعد ضغوط شديدة من قبل ضحاياه. وهو ما أدى إلى اعتقاله هو وعصابته الصغيرة من المرتزقة. لم تكن أعمال إديما الاستغلالية سوى جزء بسيط مما كان يجري في أفغانستان، ولم يكن جاك نفسه سوى لاعب هامشي يفتقد إلى دور حقيقي في صناعة الأمن الخاص التي تعمل بحسب الأصول. ومع ذلك، فإن النجاح الذي حققه إديما في أفغانستان يشير إلى الخطر الكامن في زيادة انتشار المدنيين المسلحين في مسرح الحرب.

إن الطبقات المتعددة من عمليات الاحتيال التي تلف حياة جوناثان كيث إديما تجعل من مهمة حل لغز هذا الرجل أمراً عسيراً. وتفيد القصص الملفقة والروايات المضللة التي يقدمها للصحافة إلى أن أي مقابلة تجرى معه ستكون أقرب إلى التسلية منها إلى

الفائدة والحقيقة. لكن، في أثناء حديثي إلى الزملاء وغيرهم ممن عرفوا إديما وتعاملوا معه، ظهرت صورة مقلقة عن سهولة قيام شخص عادي -وإن كان يعاني عيوباً عميقة- باستغلال طريقة أداء العمليات السرية وانتهاز التوسع الذي طرأ على توجه الحكومة الأمريكية نحو استخدام الشركات الأمنية الخاصة. ولقد أثبت إديما أن شخصاً مدنياً مبتدئاً طموحاً يملك مهارات معينة يمكنه الاستمرار في أعماله الاحتيالية بكل إصرار وعناد على نحو مستقل وبمعزل عن أي رقابة حكومية، أو توجيه، أو دعم مالي خارجي.

بعد 11 أيلول/ سبتمبر، شعر إديما الذي كان مدفوعاً بمشاعر الغضب وأحاسيس الوطنية العميقة في نفسه، أن بإمكانه القبض على ابن لادن إذا أتيحت له الفرصة. ولكن عليه أن يجد طريقه إلى أفغانستان أولاً. وفي رحلته الأولى إلى منطقة الحرب، نجح إديما في خلق فرصة لنفسه بالعمل لمصلحة محطة ناشونال جيوغرافيك، التي مولت إنتاج فيلم وثائقي كان يفترض فيه أن يرصد عمل اثنتين من المنظمات الإنسانية العاملة في أفغانستان. وفي حين أن هذا المشروع يبدو عملاً بريئاً بل عملاً شجاعاً، إلا أن إديما انتهى به المطاف إلى النصب والاحتيال على منظمتين غير حكوميتين، وإنتاج فيلم وثائقي يسجل دراما أعماله البطولية.

يملك إديما ذو البنية القليلة، والبصر الضعيف، والشعر الخفيف المصبوغ باللون الأسود، شخصية مهيمنة وجذابة متى أراد ذلك. ومع أن طوله لا يتعدى متراً وخمسة وسبعين سنتيمتراً، إلا أن بإمكانه أن يترك انطباعاً طويل الأمد على الأشخاص الذين يلقونه. ولا يظهر إدوارد آرتيس، مدير إحدى المنظمات غير الحكومية التي وقعت ضحية لاحتياله، من مشاعر الاحترام تجاه إديما أكثر مما يظهره غيره من الأشخاص الذين تعاملوا مع هذا الرجل، ويقول في إديما: «لو كان دَلْوُه الذي يحمله على كتفه مليئاً بالقاذورات وسقط عليه، فلا بأس في ذلك من وجهة نظري».

يتخصص آرتيس، وهو جندي مظلي متقاعد من الفرقة الثانية والثمانين، في أعمال الإغاثة الإنسانية في المناطق الواقعة على خط النار، وقد بدأ بعمله هذا في مطلع سبعينيات القرن الماضي، وعمل في أفغانستان عدة مرات. وتحرص منظمته الخيرية الصغيرة التي يطلق عليها نايتبريج إنترناشونال (منظمة جسر الفرسان الدولية) على السرعة وعدم

التعقيد في أعمالها. ومع أنه اصطحب معه مصور أفلام في رحلته الأخيرة إلى جنوب آسية، وإدراكاً منه لأهمية الذيوع الإعلامي في جلب التبرعات، فقد وافق على أن يقوم فريق تصوير أفلام تابع لتلفاز ناشونال جيوغرافيك بالانضمام إلى قافلته بعد أن قام أحد أصدقائه بتزكية إديما عندهم.

«لقد وقعت تلك الحادثة المتعلقة بناشونال جيوغرافيك عن طريق إديما. وأنا أعترف بأنني أخطأت التقدير. ففي تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2001، اتصل بي زميل لي من محفل فرسان مالطا[1]، وهو ضابط متقاعد برتبة رائد في القوات الخاصة، وكاتب في مجلة جنود المغانم. ثم أرسل لي إديما رسالة إلكترونية بعد أن قدمه لي موريس. وما ظننته آنذاك، أن إديما كان شخصاً خرج لتوه من السجن، وأنه يسعى إلى فعل شيء نبيل ليصلح سمعته .... وقال لي: إنه يعمل على إخراج فيلم وثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك التلفازية بالتعاون مع المخرج غاري سكوركا والمصور إد كاربالو الذي كان يعمل سابقاً في محطة سي بي إس».

وعلى الرغم من الانطباع الأولي الذي تولد لدى آرتيس، إلا أن جوناثان كيث إديما لم يقدم نفسه على أنه صاحب أسبقية جنائية يحاول السير في الطريق المستقيم، بل أعاد تشكيل نفسه باسم جديد هو «جاك» الذي يمثل شخصية من يحارب الجريمة، ويبطش بالأشرار، فهو جندي سابق خدم في وحدة القبعات الخضر (القوات الخاصة) ويملك مهارات مدهشة وعلاقات سرية لإنقاذ العالم من الشر. غير أن الحقيقة هي أن إديما كان مفلساً مادياً، وكان متورطاً في عدة دعاوى قضائية كيدية عابثة يهدف من ورائها إثراء نفسه دون وجه حق، من بينها دعوى على شركة دريم وركس بحجة أنها سرقت قصة حياته، ووصل به الأمر إلى مقاضاة إحدى الشركات لأنها استردت سيارة جيب كانت باعتها له بعد أن تخلف عن دفع أقساطها. ويمكن لنظرة سريعة على خلفية إديما أن تكشف عن سجل من الاعتقالات الأمنية على تسلمه وحيازته أموالاً مسروقة، والتصرف برعونة، ومقاومة رجال الأمن، والفرار من وجه العدالة، وحادثتي اعتداء

1- مجموعة أخوية كاثوليكية يعود أصلها إلى عصر الحروب الصليبية وتعرف بمسميات أخرى مثل «هوسبيتلرز».

عـن طريـق إشهار سلاح ناري وتصويبه، وإطلاق النار علـى مسكن مأهول، وتهديد فتاة والاعتداء عليها، وإدانة من محكمة فدرالية بتهمة التآمر، وخمس وخمسين تهمة بالاحتيال الإلكـتروني[1]. لم تطـأ قدما إديما أرض أفغانستان من قبل، ولم يسبق له أن قام بأي عمل مـن أعمال الإغاثة الإنسانية، ولكنه رأى في عدسة كاميرا تصوير الفيلم الوثائقي فرصة سانحة لتسجيل الأعمال البطولية التي كان ينوي القيام بها، أو على الأقل إضفاء عنصر درامي عليها، لتحقيق الشهرة والمكاسب المادية.

لم يكن الفيلم الوثائقي الذي كانت تعده قناة ناشونال جيوغرافيك هو المحاولة الأولى لمسعـى إديمـا في إظهار نفسه بطلاً يشار إليـه بالبنان. ففي أيار/ مايـو من عام 1995، أرسـل جـم موريس فكـرة فيلـم إلى ستيفن سبيلبيرغ بعنـوان مدفع منفلـت: قصة كيث إديمـا، واصفاً الفيلم بأنـه «استعراض مبني على الأعمال البطوليـة التي قام بها إديما، ولكنـه طافح بالقصـص الخيالية»، وهو نمط ينتهجـه إديما بدقة في حياتـه. وأصبحت قصـة هذا الفيلم محـلاً لدعوى قضائية رفعهـا إديما وموريس عـام 2000 على ستيفن سبيلبـيرغ، وشركـة دريمويرك، وجورج كلـوني، وغيرهم ممن لهم علاقـة بالفيلم الذي أنتج عام 1997 بعنـوان صانع السلام، وتدور أحداثه حول تهريب أسلحة نووية. وطالبت الدعوى بدفع تعويضات مقدارها 150 مليون دولار، غير أن المحكمة ردت الدعوى وحكمت علـى إديما بدفع الرسوم وأتعاب المحامين التي تكبدتها شركة دريمويرك في هذه القضية والبالغة 273.300 دولار.

وبحسـب ما جـاء في نص الفيلم المقـترح لوس كانون (المدفع المنفلـت)، يدعي إديما بأنه حين كان يعمل في ليتوانيا في تدريب قوات الأمن والشرطة في بداية تسعينيات القرن الماضـي، علم بوجود شبكة قوية تعمل في تهريب المواد النووية من دول الاتحاد السوفييتي السابـق وبيعها في السوق السـوداء. وحين عاد إلى الولايات المتحدة، قـام إديما بإيصال هـذه المعلومـات إلى البنتاغـون ومكتب التحقيقات الفـدرالي، ولكنه رفض الكشف عن المصـدر الذي حصل منه على هـذه المعلومات. وحين ألقي القبض على إديما بعدها بتهم تتعلـق بارتكاب خمسين عملية احتيال باستخـدام وسائل الاتصال الإليكتروني، ادعى أن

1- وهو الاحتيال الذي تستخدم فيه وسائل الاتصال الحديثة كالانترنت، والهاتف.

مكتب التحقيقات الفدرالي يسعى إلى معاقبته لأنه لم يكشف عن مصدر معلوماته. وقال إن هـذه المؤامرة هي سبـب محاكمته، وإدانته، ووضعه في السجن الفدرالي، وليس بسبب قيامـه بتزوير الوثائق المتعلقة ببطاقات الائتمان للحصـول على ما يلزمه لتشغيل شركته الخاسرة المتخصصة بالبيع عن طريق البريد، دون أن يدفع ثمن تلك اللوازم. إن الإساءة عن طريق المؤامرة، وكره مكتب التحقيقات الفدرالي، والادعاء بسرقة الأملاك، والإنكار التـام لارتـكاب أي خطأ، كانت -ومـا زالت- تمثل أفكاراً محورية في حيـاة إديما سنوات مديدة قبل أن يتوجه بآخر مغامراته إلى أفغانستان.

تجاهـل إديما، في أثناء محاكمته، المحامي الـذي عينته المحكمة للدفاع عنه، وقام هو نفسـه بالدفاع عـن نفسه. وكان يردد الادعـاء بوجود مؤامرة تستهدفـه، ويقلل من شأن الأدلـة الموجهة ضده، ويسخر من القاضي والمدعي العام. وقد استاء القاضي الذي ينظر في القضية من مزاعم كيث ومن أعذاره، ومن سلوكه الاستفزازي. وخاطب القاضي والاس ديكسـون إديما قائلاً: «بحسب تقديري، أعتقد أنك شخص عربيد تعشق الثرثرة، وتحب أن تسمـع قرقعـة لسانك». ثم تابع القاضـي ديكسون كلامه قائـلاً: «أعتقد أنك شخص مريضـ، ولا أملك وسيلة أخرى للتعبير عن هذه الحقيقة. أعتقد أنك مصاب في عقلك». وكان رأي القاضـي تيرينس بويلز بإديما على قدر مسـاوٍ من القسوة حين قال:«إن كل ما تسوقـه من ادعـاءات حول وطنيتك المتفانيـة وكونك شخصاً فريداً متميـزاً هو من نسج الأوهـام والخيـال». وكان رد إديما المعتاد هو :«سأقاضي مكتـب التحقيقات الفدرالي... إنهـم يدركون أنني سأذهب إلى التلفاز، ويعلمون أننـي سأذهب إلى الكونغرس، ويعلمون أنني لن أستسلم حتى أثبت براءتي». وفي الحادي عشر من نيسان/ إبريل من عام 1995، حُكـم على كيث إديما البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً بالسجن أربع سنوات وبغرامة قدرها 250 ألف دولار.

بعـد هزيمته القاسية في المحاكم، نقل إديما معركته إلى وسائل الإعلام، فقام صديقه القـديم جـم موريس وشريكه في الدعـوى التي رفعت على شركة دريمويـرك، بدعم رواية إديما عن الحيف الذي لحق به، وكتب في مجلة جنود المغانم مقالة نشرت في عدد نيسان/ إبريـل وأيـار/ مايو من عام 1995. ولم يمض وقت طويل حتـى أرسلت محطة سي بي إس

واحـداً من أبرز المحققـين الصحفيين العاملين لديها واسمه غـاري سكوركا لإجراء حوار تلفـازي مـع إديما في السجـن. ونال التحقيق حـول التهريب النـووي في ليتوانية الذي بث ضمـن برنامـج «ستون دقيقة» في تشرين الأول/ أكتوبر من عـام 1995 عدداً من الجوائز التقديريـة في مجـال التحقيق الصحافي، غير أن محرري البرنامـج شعروا بعدم الارتياح من دقة واحد من مصادر التحقيق، فقرروا إزالة المقابلة التي أجريت مع إديما في السجن الفدرالي من ذلك الفيلم.

واتصـل إديمـا بعد أن خرج من السجـن بالمحقق سكوركا عـام 1997، وأنشأ الاثنان شركـة إنتاج إعلامي أطلقـوا عليها اسم «بوينت بلانك نيوز». واقـترح إديما أول مشروع لهـذه الشركة، وهو إنتاج فيلم بعنوان أي رجل أقل شأناً: قصة كيث إديما. لكن الشركات الإعلاميـة والممولـين، وعلـى الرغم من اقتنـاع سكوركا بقصـة إديمـا، لم تشاركه هذا التحمـس. ولم يتمكن الاثنان من جمع سوى ربع المبلغ اللازم لإنتاج الفيلم، والبالغ مليون دولار، وانتهى بهما الأمر إلى تأجيل المشروع برمته.

رأس البطاطا

حـين انتهى إلى علـم إديما بعد الحادي عشر مـن أيلول/ سبتمـبر أن إد آرتيس ينوي التوجـه إلى أفغانستـان، فلا بد أنه رأى في ذلك فرصة مواتية لإعـادة إخراج فكرة فيلمه المقـترح «أي رجل أقل شأنـاً» بقالب مختلف. وعلى الرغم من أن مقـترح الفيلم الوثائقي الـذي قدمـه كان يركز على جهـود إد آرتيس، إلا أن إديما تصوّر لنفسـه دوراً بطولياً على اعتبـار أنه جنـدي سابق آخر تحـوّل إلى العمل في مجال الإغاثة مقتحمـاً مخاطر الوغى للتخفيـف من معاناة فقراء أفغانستان. ومع اقتراب شـن الحرب الأمريكية على طالبان، وتعطّش الجمهـور الأمريكي إلى أي معلومات عن عدوهم الـذي اكتشفوه قريباً، تزاحمت المحطـات الإعلامية بالمناكب لملء برامجهـا بأي شيء له علاقة بأفغانستان. وفي مثل هذا الطقـس، لم تـول هـذه المحطات أي اعتبـار لحقيقة أن إديمـا لم يكن لـه أي صلة تربطه بأعمـال الإغاثة الإنسانية، أو العمليات العسكريـة، أو النشاطات التجارية في أفغانستان. وكان الاقـتراح الذي تقدم به إلى محطـة ناشونال جيوغرافيك لإنتاج فيلم بعنوان «عملية

البحث عن الطريق»، يصوّر «كيث» بوصفه قائد فريق من جنود الصاعقة السابقين جاء لينقذ «السيد إدوارد آرتيس»، وهو جندي سابق شارك في الحرب الفيتنامية وأحد «أبرز الناشطين في أعمال الإغاثة الإنسانية على المستوى العالمي». ووصف الاقتراح كيث بأنه رجل دخل السجن بسبب جريمة لم يرتكبها وهو الآن يريد «العودة إلى أعمال المغامرة والإثارة».

اتصل إديما بإد آرتيس حين كان هذا الأخير في طاجيكستان ينتظر إتمام إجراءات دخوله أفغانستان ومعه المصور إدريان بيليك، لتصوير فيلم وثائقي عنوانه أبعد من نطاق المهمة. ويتذكر آرتيس بأن إديما لم يكن واضحاً حول المحور الرئيس للفيلم الوثائقي الذي اقترحه منذ أول حديث دار بينهما. ويقول آرتيس :«كنا في القافلة نستعد للتوجه إلى أفغانستان حين تلقيت مكالمة من إديما على هاتفي النقال الذي يعمل عن طريق الأقمار الصناعية. وقد قمنا بتصوير تلك المكالمة. ولدي صور له وهو يحدثني عن مشروع فيلم ناشونال جيوغرافيك. (يرغب غاري سكوركا من ناشونال جيوغرافيك أن يحضر لإنتاج فيلم وثائقي عنك). فسألته (وما هي الفكرة المركزية لهذا الفيلم ... لدي خبرة كافية في هذا العمل، دعني أرَ الخطوط العريضة للفيلم). فقال إديما: (سنقدم لك الخطوط العريضة قبل أن نلتقي). وأخبرني إديما بأن (غاري سكوركا لا يرغب في إرسال تلك المعلومات عن طريق البريد الإلكتروني، وسوف نحضرها معنا حين نلتقي). فقلت له: حسناً. وكانت الفكرة أنهم كانوا يريدون إنتاج فيلم وثائقي عن جهود منظمة نايتبريج إنترناشونال في مساعدة الشعب الأفغاني. كما تعلم، أفراد متقاعدون من الجيش يقومون بأعمال مساعدة إنسانية في الوقت الذي تتساقط حولهم القذائف والقنابل. التغطية الإعلامية هي شيء جيد، لكن إنجاز المهمة التي أتيت من أجلها يأتي في المرتبة الأولى. ولم آت إلى هنا لتحقيق شهرة شخصية».

لم يرغب آرتيس في تأخير مهمته في أفغانستان، وسرعان ما نفد صبره من تأخر فريق الفيلم الوثائقي الجديد المزعج الذي سيتبعه. (قلت لإديما أن يأتي عبر طاجيكستان ويحصل على تأشيرة دخول إلى أفغانستان من هناك. قلت له: «اعلم أنني لن أجلس هنا في انتظارك. إننا متوجهون إلى منطقة حرب، أيها الأخرق») وعلى الرغم من أن

المنظمات غير الحكومية كانت ممنوعة من دخول أفغانستان في ذلك الوقت، إلا أن آرتيس وبيليك استطاعا الدخول تحت غطاء العمل الصحافي، واضطرا إلى عمل بعض التقارير الإخبارية لتسويغ حصولهما على تأشيرات الدخول والإقامة في أفغانستان.

وفي نهاية شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 2001، توجه إديما وسكوركا أخيراً إلى أفغانستان، يرافقهما غريغ لوونغ، وهو مقدم متقاعد من القوات الخاصة يعمل حالياً في مجال الإغاثة الإنسانية في مؤسسة الشركاء الدولية، وهي منظمة خيرية غير حكومية كان يفترض أن يغطي نشاطها في الفيلم الوثائقي لمحطة ناشونال جيوغرافيك. وكما يتذكر آرتيس، فإن المجموعة واجهت مصاعب قبل أن تبدأ رحلتها: «لقد توجهوا بالطائرة إلى روسية ثم إلى أوزبكستان دون تأشيرة دخول، وقد سبق أن أخبرتهم بضرورة الحصول على تأشيرة الدخول قبل السفر، وكنت أظن أنهم يعملون مع منظمات غير حكومية، وأنهم يعرفون كيفية الحصول على تأشيرة الدخول، وقامت السلطات الأوزبكية باعتقال ثلاثتهم مدة ثلاثة أيام في استراحة الأشخاص المهمين». وفي الثاني من نوفمبر 2001، تمكن إديما من إقناع موظف شاب في السفارة بأنه متعاقد مع وزارة الدفاع. وهذا الخطأ يمكن تفهمه؛ لأن إديما طلب إلى السفارة التثبت من جنسيته الأمريكية عن طريق رئيس مؤسسة الشركاء الدولية الذي كان أيضاً ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله في قيادة العمليات الخاصة (سوكوم)، وهي القيادة المسؤولة عن إدارة العمليات السرية.

ويتابع آرتيس كلامه: «قال العقيد بوب موريس: إنه تلقى مكالمة هاتفية من شخص يعمل في السفارة الأمريكية، وبصفته ضابطاً برتبة عقيد لا يزال على رأس عمله، ولأنه كان يرغب في الحصول على راتب تقاعدي أكثر مما يقدمه الجيش [من عمله الجانبي في مجال الإغاثة]، فقد طلب إليه التثبت من الجنسية الأمريكية لهؤلاء الأشخاص. هذا كل ما في الأمر. غير أن العقيد موريس لم يخطر بباله ما سيحوكه إديما من هذا الطلب. لقد طلب إليه التثبت من أن هؤلاء الثلاثة يحملون الجنسية الأمريكية وحصلوا منه على رسالة تؤكد ذلك. أما كيف حصلوا على رسالة تقول إن سكوركا، وإديما، وغريغ لونغ كانوا يعملون بعقد لمصلحة وزارة الدفاع، فهذا أمر لن أعرفه ألبتة».

يؤدي العقيد بوب موريس نشاطه في العمل الإنساني إلى جانب دوامه الكامل في وظيفته العسكرية. وليس من الصعب تخيل أن إديما غمز بعينه موظفي السفارة وأومأ برأسه حين طلب إليهم إخراجه من ورطة اعتقاله عن طريق التثبت من جنسيته عن طريق العقيد بوب موريس الذي يعمل في قيادة العمليات الخاصة. وفي العادة يجري التثبت من الجنسية عن طريق وزارة الخارجية، وأكدت رسالة إلكترونية من السفارة الأمريكية أن ملحقاً عسكرياً برتبة دنيا ظن أنه أسدى للعقيد بوب موريس معروفاً. [بمساعدته إخراج إديما ورفاقه من الاعتقال].

«أظن أن إديما يحمل هوية عسكرية مزورة تقول: إنه برتبة رائد، وهذا ما سمح له بدخول البلد. ثم تحولت الكذبة إلى كذبة أخرى بعد أن حصل على تلك الرسالة من السفارة».

وبعد أن اكتشف آرتيس مكر إديما وكذبه، حاول أن يحذر الآخرين منه، غير أن تحذيراته وجدت آذاناً صما. ويرى آرتيس أن الرسالة الأولى التي حصل عليها من السفارة قدمت له «غطاءً رفيع المستوى» وهو كل ما يحتاجه للتظاهر بأنه متعاقد سري مع وزارة الدفاع. «لقد حاولت تحذير الناس منه، وحذرت الأفغان منه، لكنني الآن أدرك لماذا لم يفعلوا أي شيء معه ... إن تلك الرسالة مكنته من إبطال تحذيراتي. وفي كل مرة أقول للأفغان إنه فعل كذا أو قال كذا، كان الأفغان يتجاهلونني».

ويتذكر آرتيس بعض علامات الخطر الأولية. «أرسل لي إديما رسالة إلكترونية من طشقند يخبرني فيها بأنه سيحضر معه ترجماناً، فتاة تتحدث الروسية. رددت عليه برسالة تقول:«توقف، إياك أن تحضر فتاة روسية إلى المعسكر الأفغاني». وتبين لي بعد ذلك أن تلك الفتاة كانت مومساً التقطها تلك الليلة ليمارس معها البغاء، ثم جاء بها إلى أفغانستان.

«كما أن إديما لم يكن معه مصور، وهو أمر مستغرب أن يأتي فريق لتصوير فيلم ومعهم كل الأدوات اللازمة لكن دون مصوّر. وكان واضحاً أن سكوركا لم يكن يجيد التصوير، ولم يكن إديما يحسن التصوير هو الآخر. وكان معهم كاميرات جديدة، وهي ليست من نوع بيتا، لكنها تخرج صوراً عالية الجودة. وكانت تلك اللحظة هي أول لقاء بيننا، وكان ينتابني بعض الشكوك، لكنني قلت لنفسي لقد سبق لي أن تعاملت مع مجانين

في موقع العمل. ولهذا السبب أرى أنهم يصلحون لإنتاج شريط لاصق لا شريط فيديو» ثم ضحك.

«قام إديما وسكوركا بتوظيف شخص يدعى نيل باريت ليقوم بمهمة التصوير- وهو شخص جيد ذو شعر طويل، لكن إديما اشترط عليه تقصير شعره؛ لكي يحصل على الوظيفة. لقد أراد إديما منه أن يظهر بمظهر عسكري».

بدأ آرتيس يشعر بالضيق بعض الشيء في تعامله مع إديما منذ البداية، لكن نواقيس الخطر لم تدق في ذهنه إلا بعد أن قابله وجهاً لوجه، في ليلة إديما الأولى في أفغانستان؛ إذ دعي الجميع إلى تناول العشاء مع أحد كبار القادة المحليين في خوجابودين إحدى القواعد الأمامية لعمليات تحالف الشمال. وبحسب ما يتذكر آرتيس: «وضع الطعام، ودعي الحضور لتناوله. مد سكوركا يده إلى قطعة خبز النان كما هي عادة أهل البلد، فنهره إديما قائلاً: «لا تلمس ذلك الطعام اللعين! إنه قذر. لا تلمس الطعام!» ثم رمى إلى باريت وسكوركا علبتين من علب الوجبات الجاهزة التي يستخدمها الجيش الأمريكي. «ستأكلون وجبات جاهزة، وإياكم أن تشربوا من الشاي الذي سيقدم لكم».

«كان ذلك في الليلة الأولى. وحينها شعرت بأنني ارتكبت خطأ فادحاً. لقد أدركت أن إديما -وليس سكوركا- هو قائد المجموعة». قرر آرتيس الذي شعر بالشك والانزعاج مما رأى أن يضع قواعد سلوك تحكم عملية تصوير الفيلم الوثائقي. قلت له: «انظر، أنت تتبعني وتصور الفيلم، وليس لك أن تعيد التصوير. لم يعجبه كلامي ودعاني بابن الفاعلة». فقلت له: «أنت تحب إصدار الأوامر أغرب عن وجهي».

«في اليوم اللاحق ذهبت للقاء جم مسيدا من محطة إن بي سي ولتناول القهوة والاطلاع على آخر المستجدات ... سأل جم: «من هو صديقك الجديد؟» قلت له: «صديقي الجديد هو كيث إديما». فقال إديما: «اسمي جاك، ولا تقل لأحد مع من أعمل». وكان إديما يلبس سترته السوداء ونظاراته السود داخل الفندق».

كان الانطباع الأولي لدى آرتيس هو أنه سيعمل مع سكوركا وأن إديما سيكون مرافقاً لتقديم الأمن والحماية. حتى إنه لم يكن يعلم أن الفيلم الوثائقي سيتطرق لمنظمة غير

حكوميــة أخــرى. «أحضر [إديما] جهــاز تخطيط للقلب تبلغ قيمته ستــة إلى عشرة آلاف دولار. وهــذا حــين قال غريغ لونــغ، وهو يدعي أنــه يعمل مع منظمة غــير حكومية تدعى بارتــنرز إنترناشونال: «هيا نذهب لتوصيل هذا الجهاز». ثــم دفع إديما غريغ لونغ جانباً لالتقاط صورة له. أصابتني الدهشة وكنت مستاءً جداً».

ومع تنامي المشاحنة والتوتر، كان اندفاع إديما نحو بؤرة الضوء الإعلامي وحب الظهور سبباً كافياً لآرتيس في أن يفقد صوابه: «بدأ إديما بإجــراء مقابلات حول المواد المقاومة للرطوبة التي تسببت في تسميم الأفغان.

ومعلوم أنهم وضعوا صرراً صغيرة من المواد الممتصة للرطوبة داخل العلب البلاستيكية الصفــراء التي كانت تحتوي على وجبات جاهــزة توزعها منظمات الإغاثة على مخيمات الأفغــان، وقد اشتكــى الأفغان من المرض بعــد تناول تلك الوجبات. وبقــدرة قادر أصبح إديما الآن خبيراً طبياً وعسكرياً في أمر سبقه إليه آخرون ولفتوا إليه نظر وسائل الإعلام والقوات العسكرية.

«أخــذت إديما جانباً – وقد صوّر نيل باريت هــذا المشهد- وأشهرت إصبعي في وجهه قائــلاً: «إنني لا أعرف ما هي أجندتك، لكنني لا أريــد مشاهدتك في أي مكان أكون فيه. هيا أغرب عن وجهي». وإمعاناً مني في تأكيد هذا المعنى قلت لإديما: «كفّ عما تفعل وأقلع عنه فوراً» ثم حاول غاري سكوركا أن يدافع عنه، فقلت له: إذا كنت حقاً بحاجة إلى إديما لإنتــاج هــذا الفيلم الوثائقي، فبإمكانــك أن تأخذ كل ما التقطه مــن مشاهد وتجعلها في استــك». وسمح لسكورسكا أن يبقى في أثناء توزيــع المعونات الإنسانية؛ لأنه كان قد تبعنا لإعــداد تقريــر عن تلك الجولة». وظن آرتيس أنه حل مشكلتــه نهائياً، لأن إديما منذ تلك اللحظــة لم يكــن مسموحاً له الاقتراب من الأماكن التي يجــري فيها التصوير، لكن ذلك كان قبل حادثة الهجوم المدفعي الذي تعرضوا له.

في الحــادي عشر من تشرين الثاني/ نوفمبر، الذي يصــادف عيد قدامى المحاربين، وبعــد يوم طويل في توزيع المعونــات الإنسانية، توجه آرتيس إلى قاعدة المعسكر الذي يقيم فيــه بعد الغروب. ومن مسافة غير بعيدة شاهد نــيران المدفعية حين سمع صوتاً يستنجد

بـه عبر جهازه اللاسلكـي يقول: «إد آرتيس. هـل تسمعني؟ لقد أصيـب شخص أمريكي بجروح، وهم يريدونك في المعسكر».

أسـرع آرتيـس إلى الموقع، فرأى الصحـافي كيفن سايتس وهو يصـوّر المشهد بكاميرا الفيديو، فيما كان إديما: «يدور في مكانه كالحيوان المحبوس في قفص، وكان يتحدث إلى شخص ما من هاتفه الذي يعمل عبر الأقمار الصناعية قائلاً: أريد طائرة بلاكهووك».

تجاهـل إديمـا آرتيس بـادئ الأمر حين سأل من هـو الجريح. «ثم سألتـه ثانية: «من المصاب؟» فقال إديما: «سكوركا».

كانـوا يجلسـون في الحجرة الخلفيـة لشاحنة نقل صغـيرة (بـك أب) وكان سكوركا يتحدث إلى زوجته عبر هاتف نقال آخر يعمل عن طريق الأقمار الصناعية».

صعد آرتيس إلى الحافلة لمعاينة الجروح التي مزقت اللحم عن ركبة سكوركا، وبطنه، وفخـذه، ورجله. وقد كان سكـوركا وبعض الصحافيين يقفون في العراء حين انهال عليهم وابـل من طلقـات مدفعية طالبـان، فحاولوا جميعاً الاختبـاء خلف دبابـة تابعة لتحالف الشمـال، غافلـين عن حقيقـة أن الدبابة كانـت هي الهـدف الحقيقي لهجـوم طالبان، فأصابت شظايا الانفجار سكوركا.

«وملخـص الحالـة أن ضابطاً متخصصـاً بالإسعـاف برتبة مقدم يعمـل في القوات الخاصـة كان موجـوداً في الموقع -وأنا متخصص أيضاً بإسعـاف المعارك- فعاين المقدم غريغ لونغ الجروح، وسألته هل هي بليغة إلى الحد الذي يتطلب استدعاء إخلاء الجرحى من المكان؟ فكانت إجابته بالنفي».

وفي محاولـة منه لكبح جمـاح ردة فعل إديما المبالغة، رجـع آرتيس إلى المكان الذي كان يطـوف فيـه إديما وهو يصرخ في هاتف الأقمار الصناعية حول حاجته إلى طائرة بلاك هوك.

«سألتـه مع من يتحدث. وفي تلك اللحظة أخبر إديمـا الطرف الآخر على الهاتف بأن شخصاً ما من عمال الإغاثة يكلمه. فنزعت الهاتف من يده، وسألت المتحدث في الطرف

الآخـر مـن المكالمة: «مع من أتحدث؟ فجاءت الإجابة بأنـه ضابط برتبة رائد في السفارة الأمريكية في طشقند. فقلت له: «أيها الرائد، لقد خدمت في وحدات الإسعاف في فيتنام. ولست أرى أي إصابة خطيرة تستدعي إرسال طائرة مروحية، وإذا رغبت في أن تتوثق من هويتـي ...». أعطيته رقم أحد المعاونين العاملين في مكتب دانا روهراباتشر في الكونغرس الأمريكـي، وأخبرتـه بأنه لا يوجـد داع لتعريض حيـاة مزيد من الأشخاص للخطر، أو التسبب في إحداث مشكلة دولية، ثم نزعت الهوائي من جهاز إديما وناولته إياه.

وقـال آرتيـس بأنه صرخ في وجه إديما قائلاً: «إن تماديت معـي مرة أخرى، فسأسعى لاعتقالك أو إطلاق النار عليك. سنقوم بنقل غاري إلى المستشفى». سكت إديما ولم ينبس ببنـت شفة، فقد أخذ منـه الذعر كل مأخذ. وقلت له: «أغرب عن وجهي، وسنقوم بتكملة الفيلم، ويمكنك مشاهدته حين يبث في التلفاز».

ويتذكر الصحافي كيفن سايتس ذلك الحدث ويقول: إن آرتيس تصرف على نحو لائق، وإن إديمـا كان يتصرف بصلف وغـرور بهدف الإثارة وجلب الأنظار إليه. فقد كان ثلاثة أشخاص في موقـع الحدث، ومنهم آرتيـس، ممن لديهم تدريبات متقدمـة في الإسعاف الطبـي؛ في حـين أن إديما ليـس لديه أي خبرة في هـذا المجال. ومع ذلك، عـزا سكوركا الفضل إلى إديما لاكتشافه جرحاً لم ينتبه إليه الآخرون في أثناء نقله إلى المستشفى.

يرجـح آرتيـس وآخـرون الرأي الذي يقـول: إن إديمـا كان يعرف قيمـة المشهد الذي جـرى تصويره. «فعملية الإنقاذ الجريئة» ستكون جزءاً من فيلمه الوثائقي، بحيث تظهره بصـورة البطل الذي أنقذ الموقف. وقد تأكـدت شكوك آرتيس حين قرأ نص اقتراح إنتاج الفيلم الوثائقي الذي قدمه إديما وسكوركا لمحطة ناشونال جيوغرافيك.

«كان اعتقادي، حتى اليوم الذي سبق مغادرتنا بالطائرة المروحية، أن الفيلم الوثائقي كان عن مؤسستنا، لكنهم لم يقدموا لي نص الفيلم. وفي اليوم الأخير قبل مغادرتي، فتشت حقيبـة سكوركا. حيـث استيقظت باكراً، وقد كان إديما وسكـوركا يجريان مقابلة معاً في ملعـب التنس في الخارج، فوقعت عيناي على الملف الذي كانا يرجعان إليه حين كنت أقوم بأعمالي. وجدت في هذا الملف رسالة تحمل ختماً ذهبياً كبيراً لمحطة ناشونال جيوغرافيك

وعليهـا توقيع تيم كيلي: «إلى من يهمه الأمر، سيقوم غاري سكوركا بتصوير فيلم وثائقي حول جهود الإغاثة الإنسانية التي تدعمها منظمة الأمم المتحدة في أفغانستان، ويعمل معه في هذه المهمة كيث إديما. ويملك السيد إديما ما يكفي من المال اللازم لدعم هذا المشروع أو شـيء بهذا المعنى». ولقد كان هناك أيضـاً نص مكتوب للفيلم في خمس صفحات، وفي النصـ قائمة لمشاهد تتحدث عن انضمامهم إلينا، ثم تقع منظمة الإغاثة غير الحكومية في ورطة، ليأتي كيث إديما وينقذ الموقف. فأدركت وقتها أنهم نصبوا لنا الفخ لنقعَ فيه».

«فيمـا بعـد، اتصل بي غاري وقال لي: إنه يريد مني أن أوقع له إذناً بالنشر لما التقطه مـن مشاهد وصور. فقلت له: «لن أسمح لك باستخـدام صورتي، ولا صوتي حتى أرَ نص الفيلـم. وإذا كان في الفيلـم صورة واحدة أو إشارة إلى كيث إديما وإن كان ذلك في قائمة الشكـر الخاص في آخر الفيلـم، فلن أسمح لك باستخدام اسمـي». ولهذا السبب لا تجد لإديمـا ذكراً في الفيلم الوثائقي الذي أنتجوه». لقـد خُدِعت محطة ناشونال جيوغرافيك حين قدمت المال والدعم – عن قلة احتراز– لدخول «جاك» في الحرب على الإرهاب.

حيل بين «جاك» وبين عالمه الحقيقي مرة أخرى، ووجد نفسه بلا عمل في جنوب آسية، بعيـداً عـن دوره البطولي الأسطوري في أعمـال الإغاثة الإنسانية، وبعيـداً عن بسالته في ساحة المعركة. ونظراً لما اشتهر عنه من دهاء وحيلة، لم تخل من الانتهازية والافتقار إلى المعيـار الأخلاقي، فقد أبقى إديما نفسه مشغولاً بعد أن انفصل عن آرتيس، مقدماً نفسه للإعلاميـين في أفغانستان على أنـه «خبير» وحصل بذلك على عـدد كبير من المقابلات الإعلامية. ويتذكـر الصحافيون قيام إديما ببيع خدمات نقلهم بأسعار مرتفعه على متن واحـدة من الطائـرات المروحية البالية من طراز مي- 17، العائـدة للقائد مسعود خليلي من تحالف الشمال.

كان أكـثر الإعلاميـين يسخرون في خلوتهم مـن إديما بوصفه شخصـاً حقيراً يسعى إلى أن يكـون بطـلاً عدا عن كونه دليل حـرب غريب الأطوار. وبحسـب رأي آرتيس، فإن الصحافيـين في خواجودين كانـوا يطلقون على هذا الشخصـ الضئيل، جاحظ العينين، المسلّـح، عامـل الإغاثة المرتزقة، الخبير في الإرهاب البائع الجـوّال لقب «رأس البطاطا» وذلـك لقدرته على التخفي تحت عدد كبير من الأقنعة المختلفة. ومع أنه بدا على صداقة

ومودة مع قيادة التحالف الشمالي، إلا أن أحداً لم يتمكن من معرفة من يكون جاك هذا. وكان آرتيس على الأقل يعلم من يكون جاك هذا، وبدأ آرتيس بالاتصال بتحالف الشمال والمسؤولين الأمريكيين لتحذيرهم من مكر إديما ومكايده.

وفي منتصف شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، كتب هارون أمين، الناطق الرسمي باسم تحالف الشمال، رسالة موجهة إلى آرتيس يقول فيها: إن إديما لم يكن يعمل لمصلحتهم. وبعد أسبوعين من ذلك التاريخ، أخبر إديما مراسلاً إعلامياً يعمل لدى صحيفة فايتفيل أبزيرفر عبر هاتف الأقمار الصناعية أنه «يعمل مع تحالف الشمال». فلو نجح إديما في إقناع تحالف الشمال بأنه يقوم بمهمة سرية، فإنهم كانوا سينكرون أنه يعمل معهم، ومن المحتمل أن يكون إديما قد أقنع القائد المحلي مسعود خليلي بإنشاء مشروع تجاري لنقل الصحافيين بين مناطق النزاع في أفغانستان دون علم القيادة العليا. والشيء الوحيد الذي يمكن استنتاجه بدرجة عالية من اليقين هو أنه لو كان إديما متعاقداً أمنياً مستقلاً مكلفاً بمهمة أمنية في أفغانستان في ذلك الوقت، لكان أمامه إنجاز أعمال طارئة لا تترك له مجالاً لاستغلال الصحافيين في جمع الأرباح، هذا عدا عن أن العميل السري لا يلهث وراء الظهور في وسائل الإعلام.

وفي الوقت الذي كان فيه جاك يسعى في جمع المال في ساحة الحرب، اتصل آرتيس ببيلي واه بحثاً عن مزيد من المعلومات عن ادعاءات إديما. وكما يتذكر بيلي فإن: «إد آرتيس كتب له رسالة قال فيها: إن جاك إديما يقول للناس: إنه يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية. وسألني إد: «هل هذا صحيح؟» ولم أكن أعرف من هو جاك إديما هذا... قلت له: إن هذا الشخص لا يعمل معنا؛ لأنني أعرف أسماء كل الأشخاص الذين يعملون معنا في أفغانستان. كان لدينا قرابة الثمانين شخصاً في تلك العملية، ولم يكن إديما واحداً منهم».

ومع اشتداد العمليات الحربية، انتقل جاك جنوباً إلى جلال أباد، حيث تابع هناك جني الأرباح من الحرب عن طريق أخذ رسوم من الصحافيين لحضور المؤتمرات الصحفية وتقديمه عروضاً لهم بأخذهم في رحلات استطلاعية إلى مناطق القتال مقابل 800 دولار للشخص الواحد، ومن بين الذين ذهبوا في هذه الرحلات جون لي أندرسون مراسل مجلة نيويوركر. وأصبح المراسلون ذوو التمويل الممتاز المتلهفون تحت ضغط من مسؤولي

التحريـر في بلادهم لإرسال مواد إخبارية حصريـة عن الحرب، مصدر العطاء الجزيل لجاك في أفغانستان. وتوافدت أعداد كبيرة من جموع الإعلاميين إلى فندق سبنغهار ذي الجـدران المتشققة في جلال أباد في أثناء معركة تورا بورا. ولأن إديما كان يشاهَد داخلاً وخارجـاً من الفندق يرافقه مجموعة صغيرة مـن الطاجيك المسلحين، ظن الصحافيون أن جـاك وعصبتـه من المرتزقة كانوا منهمكين في البحث عن ابن لادن. وفي ذلك الوقت، كانـت القـوات الخاصة التابعة للجيش، وقـوات سيل، ووكالة الاستخبـارات المركزية هي التـي تقوم بتلك المهمة، وبطريقة شبه مكشوفة، حيـث كانوا ينطلقون في تلك العملية من الفنادق، والقواعد العسكرية، ومعسكرات القيادة، مستقلين سيارات مغبرة رباعية الدفع. وكلهـم كانـوا خاضعين لأوامر تفرض عليهـم الابتعاد عن وسائل الإعـلام، وتسمح لهم، عند الضـرورة، باستخدام عملائهم الأفغان في تهديد، وضـرب، أو اعتقال الصحافيين الذين يحاولون الاقتراب منهم. وعلى العكس من ذلك، كان إديما يضع نظاراته الشمسية الطبية، ويضع الكوفية الأفغانية حول رقبته، ويلبس زياً عسكرياً أمريكياً من صنع أفغاني، ويضـع مسدساً في جيب سرواله ويحمل بيـده بندقية رشاشة من نوع كلاشنكوف، ويجمع حولـه مئات من الصحافيين قليلي الخبرة ممن وصلوا حديثـاً إلى أفغانستان. وقد أتقن الإيمـاء برأسه إيماءة العارف الذي لا يريد الإجابة بل التمويه حين كان يرد على الأسئلة الصعبة والعويصة، وكان يربك السائل بوابل من المصطلحات العسكرية التي يستخدمها أفراد القوات الخاصة، وبصراخ غاضب على المشاعر غير الوطنية. وأصبح إديما، بفضل وجـود عدد من كبار الإعلاميين الذين لم يـترددوا في طلب خدماته، مصدراً متخصصاً للقصص المثيرة، والمستشار الملهم المفضل لدى وسائل الإعلام. أما الصحافيون الواعون، فسرعـان مـا ظهر لهم أن قصص وروايات جاك لا تنسجم مـع الحقيقة، بخلاف البقية الذين انخدعوا بجاذبيته وغروره، وحرصوا على كتابة وتسجيل كل كلمة يلفظها.

استمتع إديما بهذا الاهتمام الإعلامي، وهو يمتلك أحياناً مهارة دقيقة في التلوّن بحسب رغبـة وسائل الإعلام. ولكنه مع ذلك يمكن أن يكـون منحرفاً غريب الأطوار؛ فذات مرة أطلـق الرصاص من مسدسه صوب تـود روبرسون الذي يعمل في صحيفة دالاس مورنينغ نيوز، ولكنه هَنَّأ ليندا فيستر التي تعمل في محطة فوكس نيوز على نجاحها في إجراء مقابلة

مـع «شخص من القوات الخاصة». وشاع عنه لقـب «جاك الزفت» في أوساط الإعلاميين المتشككين بأمره، وهو لقب صادق ينطبق على الخدمات التي يتقاضى عليها مبالغ طائلة. وكان يتحدث أمام الصحافيين أو أي شخص يرغب في الاستماع إلى سلسلة من القصص والأساطـير المتجددة، واصفاً نفسه بأنه «مستشار لتحالـف الشمال» أو الوصف المطاطي الفضفاضـ «خبير»، حتى إنه استطاع أن يحصل على منصب مدفوع الأجر لمدة محدودة لدى محطة فوكـس نيوز تحت وصف مستشار إخباري. حتى تحالف الشمال الذي يرتبط معـه بعلاقة حميمة كما هو مفترض، لم يسلم من طمع جاك وجشعه؛ إذ طلب جاك ذات مرة من الزعيـم الأفغاني المدعوم من وكالة الاستخبارات المركزية هزرات علي أن يقدم تقريـراً موجزاً عـن العمليات لوفد مهم من مسؤولين في البنتاغون في فندق سبنغهار. ثم تبـين أن «المسؤولين» الذين تحدث عنهم جاك كانـوا مراسلين صحفيين أخذ جاك منهم مبلغ 100 دولار مقابل حضور إيجاز إخباري «حصري» من هزرات علي.

وعلـى الرغم من تمكنه مـن جني بعض المال من هنا وهناك مـن وسائل الإعلام، إلا أن أكـبر صفقاته حدثت في كانون الثاني/ ينـاير مـن عام 2002، حين باع أشرطة مدتها 7 ساعـات عن تدريبـات القاعدة كما ادعى لمحطة سي بي أس نيـوز التي قدمت العرض الأعلى في المزاد العلني الذي أقامه لبيع تلك الأشرطة. ومع أن وكيل إديما الذي أدار المزاد واسمه ويليام موريس اقترح أن يبدأ المزاد من 150 ألف دولار، إلا أن التقارير أشارت إلى أن محطـة سـي بي أس دفعت زهاء 30 ألف دولار أو 60 ألـف دولار مقابل أولوية بث هذه الأشرطة. كما زادت البيوع الثانوية لتلك الأشرطة لمحطات أخرى مثل بي بي سي، وإيه بي سي، وإن بي سي، وغيرها، لتزيد في دخل إديما. أما محطة سي إن إن فلم تدخل في المزاد ولم تهتم بتلك الأشرطة بعد أن تقصت عن إديما وعرفت حقيقته، ولم تكلف نفسها عناء الـرد على رسائله ودعواته لدخول المزاد على تلك الأشرطة. وفي منتصف يناير، عرضت محطـة سـي بي اس مقابلة مع إديما في برنامج ستـون دقيقة- 2 وأخرى في نشرة الأخبار مع دان راذر. وبحسب ما يقول إد آرتيس عن إديما، فإنه «حقق الضربة الإعلامية الكبرى حـين أقنع محطة سي بي أس بشراء أشرطته المزورة عن القاعدة». ويشير آرتيس إلى أن تلـك الأشرطة التقطت بكاميرا قديمة 8 ملـم هاي- 8 فيديو كاسيت – وهي آلة التصوير

نفسهـا التـي جلبها إديما معه حين لقي آرتيس. «في البداية ادعى أنه هو الذي صور تلك الأفـلام؛ ثم ادعى أنه اشتراها؛ ثم قـال بأنها أعطيت له؛ وأخيراً زعم أن مصوراً يابانياً هو الذي التقط تلك الأفلام».

تعرضت مهمة جاك في أفغانستان التي أخذها على نفسه لتوقف مفاجئ في حزيران/ يونيـو مـن عام 2002 بسبب وفاة أمه، فاضطر إلى العـودة إلى موطنه في نيويورك. وبعد الفراغ من دفن والدته بمدة غير طويلة، توجه إديما إلى فايتفيل في ولاية كارولينا الشمالية للمشاركة في الاحتفال بالذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة.

يقول إديما: إن رغبته بالالتحاق بالقوات الخاصة تكونت منذ اليوم الأول الذي عرض فيـه فيلم جون وين، وهو فيلم مؤسس على كتـاب عنوانه «البريات الخضر» للكاتب روبن مـور. كما أن والد إديما شارك في الحـرب العالمية الثانية في قوات المارينز، وأدت خدمته المحدودة في الجيش دوراً كبيراً في تكوين هويته الشخصية، مع أن سجله المهني في القوات الخاصة يكشف عن خلفية مضطربة وقدرات مشكوك فيها. ويظهر سجل إديما العسكري مـن الوهلة الأولى أنه سُرح مـن الخدمة العسكرية بعد ثلاث سنوات في الرابع والعشرين من شباط/ فبراير من عام 1977، تسريحاً مشرفاً. ولكن تقريراً صدر بتاريخ 18 آذار/ مارس، 1977 يصـف مستوى أدائـه بأنه «أقل مـن الاعتيادي»، ويذكـر التقرير من بين الأسبـاب التي تجعل منه جندياً فاشلاً: ضعف التركيز على التفاصيل، والإخفاق في اتباع التعليمـات، وعدم القدرة علـى تقبل النقد البناء. ويذكر تقرير آخـر حرره النقيب جون دي كارلسـون أن إديمـا «هو من دون شك الجندي الأكثر افتقـاراً إلى المهنية، والتحفيز، والرشد من بين الجنود الذين عرفتهم في حياتي».

وعلى الرغم من هذه الآراء اللاذعة، استطاع إديما أن يستخدم تدريبه ومهاراته التي اكتسبها من خدمته العسكرية في تأسيس معهد للتدريب على مكافحة الإرهاب في ردهوك في نيويورك، أطلق عليه اسم كون – تر. ولم يستمر عمله طويلاً، ولكنه تمكن من الحصول علـى صـورة تظهر ابن رونالد ريغان وهو يـزور المعهد. وتأسيساً علـى خلفيته العسكرية، كانت خطوة إديما اللاحقة في حياته المهنية هي تأسيس معرض تجاري للقوات الخاصة، تعرض فيه أحدث المعدات العسكرية، ويكون مكاناً يجمع المهتمين في هذا المجال للتواصل

وتَعَـرُّفِ بعضهـم على بعض. وفي واحد مـن هذه المعارض التي أقامهـا، تعرف إديما إلى روبن مور، صاحب الرواية التي كانت سبباً في التحاق إديما بالقوات الخاصة.

وبحسـب مـا يقوله مور، فـإن اللقاء أعقبه تواصـل بين الاثنين في الحفـل الذي أقيم بمناسبة الذكرى الخمسين لإنشاء القوات الخاصة في صيف عام 2002. وفي ذلك اللقاء أخبر مور إديما عن مشروع كتابه الجديد، وهو كتاب عن القوات الخاصة في أفغانستان. وعلى الفور أقنع إديما مور بأن خبرته وتجربته في أفغانستان وخلفيته العسكرية يمكن أن تفيـد كثـيراً في هذا الكتاب؛ وبذلك بدأ تعاون مشؤوم بـين الاثنين أسفر عن خروج كتاب «مطاردة ابن لادن».

تمتـع روبـن مور بعـد إصدار كتابـه الأول «البريـات الخضر» بمصداقيـة عالية لدى المؤسسة العسكرية. لذلك استخدم مور معارفه وأصدقاءه وقنوات اتصاله في الجيش بعد بدء العمليات العسكريـة؛ لكي يحصل على التسهيلات اللازمة لتأليف كتابه الجديد عن القـوات الخاصـة في أفغانستـان. والمشكلة هي أن مور كان في أواخـر السبعين من عمره، ويعاني مرض الباركنسون. وبخلاف كتابه الأول، حيث قام بمشاركة الجنود في تدريباتهم الأساسيـة، وأمضى بعض الوقت في ساحة المعركة في فيتنـام، فإن مور العجوز قد اكتفى الآن بإجـراء المقابلات مع فرق القوات الخاصة التي تعود مـن أفغانستان إلى قاعدة كي تـو في أوزبكستان. وكما يتذكر أحد أفراد كتيبة العمليـات ألفا- 595 الذي تظهر صورته علـى الغلاف الخلفي من الكتاب، فإن «مور كان يغط في النوم في أثناء المقابلات، وينسى تشغيل آلة التسجيل».

جرى أكثر العمل في ذلك الكتاب على يد كريس تومسون، وهو الذي ساعد مور في جمع وتحريـر المقابـلات، وأخرج كتاب «مطاردة ابـن لادن». وكان مفهومـاً أن الكتاب بحاجة إلى شـيء يجمع بين المقابلات المنفصلة، ويكون المحـور الذي يدور حوله الكتاب. واقترح جـاك إديما أنه سيكون الشخصية المركزيـة الأمثل لهذا الدور، فهو جندي غامض سابق في القـوات الخاصـة تحوّل إلى متعهـد أمني جاء إلى أفغانستان ليشـن حرباً بنفسه على الإرهـاب. أما مور وتومسون فرأيا أن ذهاب إديمـا إلى أفغانستان بوصفه شخصاً مدنياً يضيف عنصراً مشوقاً إلى الكتاب.

كان جـاك على درجـة من الذكاء مكنته من إبرام صفقـة جانبية مع وكيل مور للنشر يحصـل بموجبها علـى نسبة مئوية من الأربـاح مقابل كتابة قسم كبـير من الكتاب. وفي صفحـة الشكـر في الكتاب، أثنى مـور ثناءً جزيلاً على كرس تومسـون، وهو جندي سابق خـدم أبوه في القوات الخاصة الأمريكية، غير أن الكتاب تحوّل إلى واجهة لعرض شخص اسمـه «جـاك»، حتى إن غلاف الكتاب عرضـ صورة إديما وهو معصـوب الرأس حاملاً بندقية رشاشة ومسدساً على خصره، ومحاطاً بثلة من أعوانه الأفغان. وورد اسم «جاك» في الكشاف تحت فصل «جنود القوات الخاصة».

لقد كنت من بين الذين أجريت معهم مقابلات في كتاب «مطاردة ابن لادن» ويمكنني التحـدث مـن تجربتي الشخصية وأقـول: إن أكثر المعلومات الـواردة في ذلك الكتاب هي معلومات غـير صحيحة، وتفتقر إلى التوثيق، وكتبت من مكان بعيد عن مسرح العمليات، ممـا أدى إلى الخلط بـين التفاصيل الدقيقة. وقد وضعت صـورة لفريق كنت أرافقه من القوات الخاصة على الغلاف الخلفي للكتاب. ومع أن أعضاء هذا الفريق لم يسبق لهم أن قابلوا جاك شخصياً، ولم يتحدثوا إليه، ومع أن أكثر أعضاء الفريق قد وصفوا بالتفصيل الدقيـق للسيد مور في قاعـدة كي - تو العمليات التي يقومون بهـا، فإن الفصل الأول من الكتاب يتحدث عن روايات دخول الفريق إلى أفغانستان، وهي بحسب ما ذكروه لي محض اختـلاق. وبخـلاف ما يذكر الكتاب، لم يكن هناك إطلاق نـيران، ولم يكن هناك دراما؛ إذ هبطت طائرتهم في الليل، وكان في استقبالهم فريق من وكالة الاستخبارات المركزية، بمن فيهم مايك سيان، ثم شرعوا في إنزال أمتعتهم.

اقـترف إديما خطـأً قاتلاً حـين أدرج الأسماء الحقيقيـة لأعضاء الفريـق واختلاقه عمليـات لم تحدث أصلاً. ويركز الفصل الأول من الكتاب في أكثره على مراقب جوي من سلاح الجو اسمه ماثيو مع أن ماثيو الحقيقي وصل أفغانستان بعد أيام من وصول الفريق. في حـين يتحدث الكتاب عن ماثيو وهو يصرخ مستنجـداً «إننا على وشك السقوط أسرى بيـد العـدو ... أريد إسناداً جوياً في الحال!» وينقل الكتـاب رد طياري قاذفة القنابل بي-52 علـى استنجـاد ماثيو بالعبارة البالية «القنابل في طريقهـا» . وينقل عن جنود القوات الخاصـة في الميدان قولهم: «يـا إلهي، غير معقول!»، وهم يراقبـون «جثث مئة من قوات

طالبـان والقاعدة وهي تتطاير إلى الأعلـى، وترتج أرجلهم وسواعدهم في أقل من الثانية قبـل أن تتحول إلى سديم وردي في الهواء، ولا يتبقى من أجسامهم ولا ملابسهم أي أثر». وفي حـين أن قصة دخول القوات الخاصة إلى أفغانستـان هي القصة الأطول في الكتاب، فإن عنصر الخيال الذي يناسب الأفلام الرخيصة تسيطر على أكثر العمل.

وقـد ذكر لي أحـد الجنود الذيـن أتقن إديمـا وصفهم بإبـداع وهم يـرددون «نشيد البريات الخضر» بعد إحـدى المعارك، قائلاً: «إنهم يزيدون من مخاطر أمننا الشخصي في كل مرة يلفقون علينا مزيداً من القصص». أما زوجه، فلا تخفي غضبها من قرار نشر الأسماء الكاملة للجنود المذكورين في الكتاب مقرونة بصورهم ورتبهم. وتشعر أن بإمكان أي إرهابـي يملك مهارة بسيطة في استخـدام الحاسوب، أن يحدد عناوين مساكن هؤلاء الجنـود بغية الانتقام من أسرهم في الوقت الذي يذهـب فيه الأزواج في مهمات عسكرية مطولة في الخارج.

وفي نهايـة القصة الخيالية في هذا الكتاب غير الخيالي، ينتحل «جاك» صفة شاعرية لشخصيـة جنـدي ثمل بالفـودكا وعصير الرمان، يحمـل على جنبيـه مسدسين من نوع مـاكاروف، ويردد بلسان ثقيل عبارة مشوهة ممسوخة مـن الأفلام. «يا إلهي، إنني أكره انتهـاء الحرب»، وهـذه الشخصية تحاكي شخصية العقيد كليغور مـن فيلم نهاية العالم الآن. «وبعينيـه المتعبتـين اللتين تعاينـان زجاجة الويسكي، يتأمل جاك مـا لا يمكن تأمله «وفي أثنـاء الحرب، بدا جاك في كل مكان ... ولكن هل كان جاك شخصاً واحداً، أم عدة شخوص؟» وربما كان في هذا السؤال مفتاح المرض العقلـي الذي يعانيه «جاك» والنظرة المدمرة للحقيقة والولاء.

ولزيـادة الطين بِلَّـة، ورد في ملحق الطبعـة الأولى من الكتاب قائمـة لست منظمات خيريـة تقدم الدعـم لأفراد القـوات الخاصـة، ولأسرهـم وأطفالهم، وكذلـك للشعب الأفغـاني. ولا يمكن إلا لعين فاحصة أن تلحـظ واحدة من تلك المنظمات المذكورة، وهي منظمـة أمريكية مناهضة للإرهاب، ووجّه إليها الشكر على تزويد الكتاب بمجموعة من الصـور التي نشرت فيه، منها صورة لجاك إديما راكبـاً صهوة حصان. وهذه المجموعة ليسـت سوى «كـون- تر»، وتشير سجلات البريد الأمريكـي إلى أن عنواناً آخر يقال: إنه

لمجموعة خيرية تساعد القوات الخاصة أفضت إلى الكشف عن صندوق بريد وحساب مصرفي يعودان لإديما.

بدأ الكتاب منذ عرضه في الأسواق بتسلق قائمة أفضل الكتب بيعاً، وهو ما أفرح مور. لكنه بعد ذلك بدأ يتلقى عشرات الرسائل الإلكترونية الاحتجاجية من جنود القوات الخاصة، ومن ذوي الجنود الموجودين في أفغانستان. واعترف مور للجنود الذين خدعوا بأنه اضطر إلى «إضفاء نوع من الإثارة» على الكتاب، وقال: إنه وضع بعض التعديلات التي لم تجد طريقها إلى الكتاب، والتمس الجنود العذر لمور على وقوعه في هذه الخديعة بسبب كبر سنه وضعف قدراته العقلية، ذلك أنه لم يكن لديهم أدنى فكرة عن تورط الشخصية غير المعروفة التي ظهرت صورتها على غلاف الكتاب. وفي النهاية، فإن الرجل الذي صنع أسطورة البريات الخضر قد نقض، بسبب إديما، أربعة قرون من الثقة التي كانت قائمة بينه وبين القوات الخاصة. وراقب مور بقلب تعتصره المرارة توالي التعليقات اللاذعة على صفحات موقع أمازون لبيع الكتب عبر الإنترنت وعلى موقعه الشخصي التي تصف كتاب «مطاردة ابن لادن» بأنه رواية خيالية ووصمة خزي وعار.

وكان إد آرتيس من بين الذين عبروا عن وجهة نظرهم بإديما على الموقع العائد لمور، وهو ما دفع إديما إلى رفع دعوى على آرتيس، وقال آرتيس: «إنه يقاضيني على تشويه سمعته،... تباً له. دعه يقاضِ شخصاً ميتاً». (أصيب آرتيس بنوبة قلبية طفيفة عام 2004 في أثناء قيامه بمهمة إنسانية في الفلبين.) ورد القاضي الدعوى أواخر عام 2005.

وأثار بيلي واه هو الآخر انزعاج إديما، إلا أن خلفية واه في القوات الخاصة جعلت إديما يحجم عن مقاضاته في المحاكم، حتى الآن. وقال واه: «يدعي إديما أنني شوهت سمعته»، وأقول: إنني لم أتحدث عنه بما يسيء إلى سمعته؛ إن ما قلته كان الحقيقة. فهو لم يكن يعمل مع وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، كما أنه لم يقم بأي من الأشياء التي زعم أنه قام بها في كتاب روبن مور».

وبدأ إديما بمعركة كلامية وكتابية عبر البريد الإلكتروني مع بيلي واه (مع توجيه نسخ من تلك الرسائل إلى جم موريس، وبوب موريس، وبوب براون، ناشر مجلة جنود من أجل

المغانم (سولدجرز فور فورتشن) وفي 17 آذار/ مارس من عام 2003، وجه إديما تهديداً عبر البريد الإلكتروني قال فيه: «إن أي شخص يعتقد أن عليه أن يركب موجة الكراهية والهراء الموجهة ضدي، فإن عليه أن يكون مستعداً؛ لأننا سنذهب إلى المحكمة وسنرى من سيكسب هذه الجولة. وأنت أيها الولد بيلي، ليس لدي مشكلة في مقاضاتك إذا واصلت بث هذا الإفك والهراء عني». ويتذكر بيلي أن حرب التهديدات بينهما تطورت إلى ما هو أبعد من مجرد الدعاوى القضائية». اتصل بي إديما وهددني. فقلت له: «اجلب كل ما عندك إن كنت رجلاً؛ لأن لدي ست بنادق وبعض الشراك الملغومة المنصوبة حول منزلي». ثم اتصل بي بعد ربع ساعة وقال: «لن أفعل شيئاً معك لأنني أعرف أنك تتمتع بسمعة عظيمة». وهذا صحيح. وإن كان يظن أن بإمكانه أن يتوعدني، فإنه مخطئ».

لم يقدم إديما على مقاضاة أسطورة البريات الخضر (القوات الخاصة) بيلي واه، لكنه قام في آذار/ مارس من عام 2004، وقبل عودته إلى أفغانستان، برفع دعوى على كريس تومبسون وأبويه، وصديقه روبن مور، إضافة إلى فوكس نيوز، والعقيد بوب موريس، وإد آرتيس، وغيرهم من الأعداء المتصورين. وعلى ما يبدو، فإن جاك كان يحاول جاهداً حماية الصورة الجديدة التي اتخذها لنفسه بوصفه جيشاً من رجل واحد يطارد ابن لادن.

محامون، وبنادق، وأموال

في شهر نيسان/ إبريل من عام 2004، عاد إديما الذي بلغ من العمر 48 عاماً إلى أفغانستان بعد أن حصل على ما يكفيه من المال من كتاب مور. لكنه عاد هذه المرة ومعه فريق من الموظفين الذين استأجرهم. ومن بينهم إد كاربالو المصور المخضرم في محطة سي بي أس، وبرنت بينيت، وهو جندي سابق، وكان يعمل نادلاً في مطاعم روبي تيوزدي في مدينة فاينتفليل. وبعد أن حط رحاله في أفغانستان، استأجر إديما منزلاً وسيارة، واستعمل عدداً من الأفغان لتقديم الدعم المحلي. وأطلق على هذه المجموعة من المرتزقة اسم «الوحدة الحربية سيف 7» وهي تحريف للاسم الرسمي الأصلي لحملة القوات الخاصة الأمريكية في أفغانستان المسمّاة الوحدة الحربية خنجر. وكانت مجموعة إديما ترتدي زياً عسكرياً موحداً على نمط الزي الأمريكي، مخيطاً عليه العلم الأمريكي، وغالباً ما

كانوا يحملون السلاح، وهو المظهر الذي دفع كثيراً من السكان المحليين إلى الاعتقاد أنهم عناصر وحدة سرية من المتعاقدين الأمنيين الذين يعملون لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. ومن منزله الكبير في كابول، بدأ إديما وفريقه بتصوير ما يمكن وصفه بأنه فيلم واقعي غريب عجيب. ويملك إديما قدرة عجيبة على المحاكاة والتقليد. وقام بإنشاء ما يمكن الاعتقاد بسهولة أنه عملية شبه عسكرية لوكالة الاستخبارات المركزية بكامل عناصرها، بما في ذلك مقرها المحلي الآمن، ومجموعة الأعوان الأفغان، واتخاذ موقف متكتم تجاه من يستفسر أو يسأل عن نشاط المجموعة. ولكنه كان مع ذلك يحب الظهور الإعلامي حين يكون ذلك ملائماً لأهدافه. وكانت المحطات الإخبارية تدفع مبالغ طائلة لأي قصة تحتوي على عنصر الإثارة حول الإرهاب في أفغانستان، وبدا أن إديما كان عازماً على استغلال هذا الطلب في السوق الإعلامية.

وسرعان ما زعم أنه كشف النقاب عن مؤامرة تقوم على وضع المتفجرات في سيارة تكسي ومهاجمة أهداف أمريكية وأفغانية، وتمكن من إقناع قوات حفظ السلام الأجنبية التي صدّقت كلامه بكل سذاجة في ثلاث مناسبات بتوفير مزيد من الحماية في أثناء جولاتها ومداهماتها، وكان جاك يتولى قيادة هذه الحماية الإضافية بمنتهى الإثارة الدرامية والبطولة الاستفزازية المصطنعة فيما كانت عدسة كاربالو تسجل تلك المشاهد. وحين تيقن إديما أن بحوزته مفتاح الحظ، عرض شريط الفيديو الذي يصوّر «الإرهابيين» الذين قبض عليهم للبيع بربع مليون دولار، غير أن المحطات الإعلامية قد بدأت تشك في صدق إديما، ولم تشتر أياً من تلك الأشرطة.

وقامت الوحدة الحربية سيف 7 بإمطار المصادر المحلية بالأسئلة وجمع المعلومات، وشرعت «باعتقال» أو الأحرى باختطاف الأفغان الذين اعتقد إديما أنهم تابعون لطالبان أو القاعدة. وجرى حجز المعتقلين، واستجوابهم وتعذيبهم في منزل الرعب الذي اتخذه إديما مقراً له في كابول. وفي 3 أيار/ مايو، قام جاك وعصابته بتسليم أحد الأفغان المعتقلين إلى السلطات الأمريكية، وقاموا بتصوير عملية التسليم في باغرام. ووصف جاك ذلك الأفغاني الذي تعرض للتعذيب بأنه «هدف ذو قيمة عالية»، غير أن الجيش الأمريكي أخلى سبيله دون توجيه أي تهمة إليه. أما أشهر سجناء إديما على الإطلاق فلم

يكـن معتقلاً بسبب علاقاته بالإرهاب، بل بسبـب منصبه بوصفه أحد كبار الشخصيات البشتونية، وقاضياً في المحكمة العليا الأفغانية.

لم يكن جاك يعلم أن التهديدات المتهورة التي كان يطلقها برعونة، والقضايا التي رفعها في المحاكـم، وأعمـال الغدر والخيانة التي ارتكبها بحق كثير مـن الناس، قد أوجدت شبكة متنامية من معارفه وأصدقائه السابقين الذين عقدوا عزمهم على وضع حد له. فهو لم يعد يحتج بوجود مؤامرة تستهدفه؛ لأنه هو الذي أوجد هذا الوضع الجديد بصنع يديه.

مـن بين هـؤلاء، محقق خاص غمطه جـاك حقه بنسبة 15% مـن عوائد قضية نجح فيها إديما، وشخص آخر يعمل في حقل الإغاثة الإنسانية احتال عليه جاك، ومؤلف قضى على سمعته، وضابط في الجيش استخدمه، والقائمة تطول. كوّن هؤلاء شبكة سرية لجمع وتبـادل المعلومات والوثائق بهـدف الكشف عن حقيقة إديما. كمـا أن عدداً من الوكالات الحكومية الأمريكية، والجيش، إضافة إلى أجهزة الإعلام، كانت تقوم بالتحقيق في نشاط جاك. مع العلم أن جاك لم يكن يعلم أي شيء عن هذه التحقيقات التي تحوم حوله.

كمـا أن جاك لم تكن لديه أدنى فكرة عن وجود جاسوس داخل منظمته، وهذا الرجل كان مهندسـاً يعمـل مع إديما في أفغانستان، وكان معجبـاً بشخصية جاك الجذابة وحبه لأعمـال الإثـارة. وبعد مضي بعض الوقت في التعامل معه، بـدأ هذا الرجل بإدراك جنون إديمـا وأخذ يلتقط صوراً لجاك وهو يعذب سجناءه الأفغـان، ويرسلها سراً إلى عدد من النـاس. والحقيقـة أن هـذا الجاسوس لم يكن بحاجـة إلى توزيع صور جـاك؛ لأن جاك نفسه كان يرسل تلك الصور وأشرطة الفيديو حول عملياته في محاولة منه لإقناع وسائل الإعـلام بشرائها. ومع ذلـك، لم يكن هناك من يريد اعتقال جـاك أو إيقافه عند حده. وطلـب جاك إلى وسائل الإعلام الدخول في مزاد لشـراء أشرطة الإرهاب الجديدة التي صنعهـا بنفسـه كاملة مع مشاهد الإثارة وهـو يرفس الأبواب ويعتقـل الأفغان. وشاهدت وسائل الإعلام تلك الأشرطة بذعر ولكنها لم تقل شيئاً.

أصبـح جاك يمثل جيشاً خاصاً بنفسه، يعاونه عدد مـن المتعاقدين المستقلين في هذه المهمة الجديدة لجني الأرباح من وراء التعذيب. أدى كاربالو دور المصور لمشاهد الإثارة،

ثم ترك الكاميرا تعمل لتسجيل التحقيقات. هل كان هذا العمل من قبيل العمل الصحافي، أم الترفيه، أم أنه توثيق للأدلة؟ يعتقد كثيرون أن قيام جاك بتلك الأعمال وعلى تلك الصورة من الجرأة والتهور قد دفعت إلى الاستنتاج أن إديما لا بد أنه كان يؤدي عملاً مهماً وسرياً، وبموافقة المسؤولين في الدوائر العليا من الحكومة الأمريكية. وكانت وكالة الاستخبارات المركزية، ووكالة استخبارات الدفاع تستخدمان فعلاً ما يظهر أنه علاقات غامضة غير محددة مع جنود سابقين تحولوا إلى متعهدين أمنيين في أفغانستان، ولهذا السبب بدت عملية جاك منسجمة مع هذا النمط.

استغل جاك هذا الانطباع أيما استغلال، وربما حاول أن يرقى بنفسه إلى موقع الشخص الذي يتمتع بالحصانة الرسمية. ومع عدم وجود أي دليل يشير إلى أن إديما حقق ذلك، إلا أن اتصالاته بمكتب الفريق جيري بويكن نائب وكيل وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات وإسناد العمليات العسكرية، تدل على أنه كان يحاول ذلك.

ويشتهر بويكن بإيلائه أذناً صاغية للأفراد الذين سبق أن خدموا في وحدات القوات الخاصة ويقومون بمهمات وطنية. وبدأ إديما بسلسلة من الاتصالات مع مكتب بويكن، وأضفى هدفهما المشترك في اجتثاث الإرهابيين طابعاً إيجابياً على الحوار، وشجّع المسؤولون الحكوميون في المراتب المتوسطة والدنيا جاك على تطوير معلومات استخبارية راسخة، ووعدهم جاك في رسالة إلكترونية مبهمة بأنه كان على وشك القيام بعملية دهم مهمة. وليس من المستغرب أن جاك كاربالو سجل المكالمات مع مكتب بويكن. وفي أثناء واحدة من تلك المكالمات، رد شخص يدعى جورغ شيم على الهاتف وأكد أنه نقل المعلومات إلى بويكن وأنهم سيراجعونه بشأنها، وهذه المكالمة على غرابتها، استخدمها جاك لإثبات ارتباطه بالجيش الأمريكي مع أن المكالمة تثبت أن جاك اتصل بمكتب بويكن وحسب. وكما يحب إد آرتيس أن يوضح ذلك بقوله: «هناك دوماً خيط من الحقيقة في كل ما يفعله جاك، ولكنه ينسج بساطاً كاملاً حول ذلك الخيط». وقد نفى كل جهاز من أجهزة الجيش الأمريكي نفياً رسمياً أي علاقة لهم بإديما. وأي اتصال بالمكتب الإعلامي في البنتاغون سيثير الرد القوي والحازم الآتي: «لا وجود لأي علاقة- وأكرر لا وجود أيِّ علاقة من أي نوع مع إديما». والإجراء الاعتيادي المتبع في البنتاغون هو نفي أي ارتباط له مع أي شخص

مكلف بالقيام بعملية سرية لحسابه. ولا سيما إذا كان هذا الشخص قد أثار فضيحة كبرى. أما في حالة إديما، فإن البنتاغون كان يقول الحقيقة؛ لأن إديما كان يحرص على تصوير كل حركة يقوم بها، ولا سيما تلك التي كان يظهر فيها وكأنه يقوم بعمل مهم. ولو كان يعمل حقاً بموجب تفويض رسمي، لكان بيده دليل أقوى من الأدلة التي قدمها على وجود علاقة رسمية بالحكومة الأمريكية. ولو كان بويكن قد اتصل بإديما لكان في حكم المؤكد أن يكون كاربالو قد سجل تلك المكالمة. إضافة إلى ذلك، فإن قيام إديما بتسجيل الأشرطة ومحاولة بيع الأفلام التي تصور عملياته تجعل من المستحيل تصور أنه كان يدير برنامجاً بعلم وموافقة الحكومة الأمريكية.

والمفارقة العجيبة التي تبرز من هذه القضية هي أنه لو كان هناك متعهد أمني يعمل لحساب الحكومة الأمريكية لتمكن من تطوير علاقة حميمة مع وسائل الإعلام وكان يحاول الاستفادة المادية من المشاهد التي التقطها في عملياته المفترض أن تكون سرية، ولكان الجيش الأمريكي أسرع في إنهاء عقده، وأعماله، وإغلاق مقره. ومع أنه كان من الواضح أن إديما لم يحصل على تمويل أو دعم الحكومة الأمريكية، إلا أن قيام جاك بإدارة سجنه في عنوان ثابت في كابول عدة شهور على مرأى ومسمع المسؤولين الأمريكيين، يشير إلى أن هؤلاء المسؤولين كانوا على دراية بنشاطات وحدة سيف - 7، وأنهم ربما أقروا ضمناً باستمرار نشاطها وعدم إعاقتها. ومع كون ابن لادن حراً طليقاً، ومع وجود عناصر من طالبان والقاعدة تجوب شوارع كابول، فإن وجود عملية قابلة للإنكار التام، يديرها عسكري سابق تتطابق أهدافه مع الأهداف الأمريكية، لا بد أن تكون من الموارد التي تخدم أهداف الحكومة الأمريكية في أفغانستان. لكن هذه النتيجة تكون صحيحة لو استطاع إديما أن يحقق نتائج ملموسة. وفي ضوء غياب أي انجاز ذي شأن، إضافة إلى الفضائح المتصاعدة حول الأسلوب الذي كانت تتبعه وحدة سيف - 7، تعني أن إديما وأعوانه لم يستمتعوا بحرية عملهم مدة طويلة.

وحالما انتهى إلى علم أحد العاملين الأصيلين في العمليات السرية -بيلي واه- ما يفعله إديما في أفغانستان، بدأ من فوره بإطلاق تحذيرات الإنذار: «أخبرت الجنرال براون من مركز قيادة العمليات الخاصة (سوكوم) أن إديما يقوم بضرب الناس ويدير

معتقلاً لسجناء الحرب... وقامت سوكوم بتوزيع ملصقات ومنشورات إلى وحدات الجيش الأمريكي تنصحهم بعدم التحدث إلى ابن الفاعلة. ووزعت هذه المنشورات والملصقات في باغرام، وطشقند، وفي كل مكان. كما قامت وكالة الاستخبارات المركزية بتوزيع تلك التعليمات. وقبل إلقاء القبض على إديما، كنت أحرص على إيصال التحذيرات إلى الجميع. لكن حين يأتي إديما ويقول للناس، مثلما قال لبويكن، بأنه يقوم بعمل مجاز من الحكومة الأمريكية، فهذا منتهى الذكاء». حتى إن الوزير الأفغاني يونس قانوني اعترف أن إديما خدعه حين دفعه إلى الاعتقاد بأنه يمثل الحكومة الأمريكية.

وفي 15 أيار/ مايو من عام 2004، وبعد سنتين ونصف من قيام إد آرتيس بتحذير المسؤولين الأفغان والأمريكيين من وجود رجل محتال، مسلح، منفلت، يجوب أنحاء أفغانستان، بدأت السلطات الأمريكية بتوزيع منشورات وملصقات تحمل صور إديما مرفقة بأمر «القبض عليه أينما وجد». ومع ذلك، فإن إلقاء القبض على إديما وأعوانه لم يتحقق إلا في الخامس من تموز/ يوليو حين اقتحمت قوة من الشرطة الأفغانية منزله في كابول.

وكما هو متوقع، فقد أصر إديما على أنه يقوم بعملية في غاية السرية، وأنه يعمل بموافقة السلطات العليا. وقدم جاك أدلته، وهي المكالمات التي أجراها مع مكتب بويكن، إلا أن بويكن لم يكن على استعداد للقول: إنه يقر جاك على نشاطاته. وأصر إديما أيضاً أن بحوزته سجلات لمكالمات أجراها مع مكتب رمسفيلد وغيره من المسؤولين. وتبين أن السجلات كانت صحيحة، إلا أنها تثبت أنها كانت مكالمات استعلامية من طرف واحد.

وبعد محاكمة قصيرة- وهَزْليّة بكل المعايير- دانت الحكومة الأفغانية كلاً من إديما، وبنيت، كاربالو بجرم إدارة سجن غير مشروع وتعذيب مواطنين أفغان. وحكم على إديما وبنيت بالسجن عشر سنوات لكل منهما، وعلى كاربالو بالسجن 8 سنوات. غير أن العقوبة خفضت إلى 5 سنوات لإديما، و3 سنوات لبنيت، وسنتين لكاربالو.

وعلى الرغم من إيداعهما في أكثر السجون الأفغانية شهرة، وهو سجن بوليتشاركي، إلا أن وحدة سيف 7 تمتعت فيه بأفضل ما هو متوافر من وسائل الرفاهية والأبهة. ويقال:

إن إديما قام برشوة آمر سجن بوليتشكاري، وهو لواء طاجيكي اسمه فهيم، للسماح له بوضع سجاد وكنبات في غرفته، إضافة إلى هاتف يعمل عن طريق الأقمار الصناعية، ونقطة اتصال بالإنترنت. وأفرج عن كاربالو في ربيع 2006 بعد أن أصدر الرئيس الأفغاني كرازاي عفواً بحقه بمناسبة السنة الأفغانية الجديدة، في حين استمر إديما الذي يمضي في السجن بقية المدة التي حكم بها عليه، في نشر موقعه الإلكتروني، وإجراء المقابلات مع المتعاطفين معه، والمجاهرة بأنه بريء من كل التهم التي نسبت إليه، ولعن المؤامرة التي تحول بينه وبين شن حربه الخاصة على الإرهاب.

يفترض الذين قابلوا إديما في أفغانستان أن ثمة شيئاً أكثر أهمية في هذه القضية، وأن شخصاً قوياً يقف خلف واجهة هذا الشخص الشديد. أما الذين يعرفون إديما حق المعرفة، فيرون فيه شخصاً محتالاً، وضيعاً، فضح نفسه في سعيه المستميت نحو الشهرة والمال. أما مالك فندق مصطفى في كابول، فينحو منحىً تهكمياً هزلياً تجاه إديما بقوله:«إن الشيء الوحيد الذي ينبغي أن يسمح لجاك أن يهاجم هو فاتورة الحانة التي كان يرتادها في الفندق». وقد تكبد آخرون خسائر مالية، وعاطفية، ومهنية بسبب الدعاوى القضائية المتكررة، وحملات التشهير، والإساءة إلى السمعة، والحملات العدوانية المفرطة التي اقترفها جاك في حق أصدقائه السابقين.

إن السهولة التي تمكن بها شخص مجرم واضح الإجرام في الظهور بمظهر المتعاقد الأمني، وقيامه بتمثيل عملياته شبه العسكرية، هو نذير خطر حول تزايد انتشار المتعاقدين الأمنيين المستقلين. وينحو بيل هاغر، وهو محقق خاص سبق له أن تعامل مع إديما، بالمسؤولية على العالم الغامض للعمليات السرية «إنه العالم الذي لا يمكن فيه للجيش أن يثبت أو ينفي ارتباطه بالقائمين بهذه العمليات. وهذه أرض خصبة للأشخاص المحتالين من أمثال إديما».